شخصيات قومية

على باشـــــا مبارك

١٨٢٤ — ١٨٩٣

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

بقلم الاستاذ الجليل : عبد الرحمن بك الرافعى

تناول الاستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك ، في العدد الماضى (مارس سنة ١٩٣٢) بالبحث والتحليل : نشأة على باشا مبارك الاولى ، ونشأته الثانية فى المدارس النظامية ، فدخوله مدرسة ميت العز ، فانتقاله الى مدرسة قصر العيني ، ثم انتقاله الى مدرسة أبى زعبل ، وكان الاستاذ الرافعى بين ذلك كله يحلل العصر الذى عاش فيه على مبارك من الناحية العلمية والتاريخية بما عرف عنه من الصدق فى الرواية ، والدقة في الاسلوب ، والبراعة فى الاستنتاج .

وفى هذا العدد يتناول النواحى الاخرى من حياة على باشا مبارك التى يراها القراء بعد ؟

المحرر

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل المترجم مدرسة المهندسخانة ، وكان إذ ذاك يافعاً إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائماً أول فرقته ؛ وكان أساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية ، أمثال : محمود باشا الفلكى ، وطائل افندى ، ومحمد بك أبو سن ، ودقلة افندى ، وابرهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد ، وسلامه باشا ، وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء الفرنسيس ؛ ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفة فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون والتلاميذ يكتبون ما يسمعونه فى كراريس ، كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون — كما شهد لهم بذلك المترجم — « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ؛ وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانة أخذوا يطبعون بعض الكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ إلى أن تكاثر طبع الكتب المطولة فى العلوم والفنون الرياضية .

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية إلى أوربا فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ٤٥١ وما بعدها)

وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، واسماعيل ؛ ومن حسن توفيق المترجم وحسن استعداده أن انتظم فى سلك البعثة الخامسة ، وهى أكبر البعثات شأناً ، وفيها بعض أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال)

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم فى مبدئها سبعين تلميذاً ، منهم : الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير أحمد رفعت ، والأمير اسماعيل (الخديوى) من أنجال إبرهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة فى الحكومة بعد عودتهم ، أمثال : شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى ابرهيم باشا ، وحماد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاتى بك وغيرهم (١)

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة ، ما فطر عليه من الميل الشديد إلى العلم ؛ فان المسيو لامبير بك ناظر المهندسخانة رغب إليه البقاء ليجعله مدرساً ، وأفهمه أن بقاءه يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله فى سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ؛ لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ليزداد اكتساباً للعلوم « ولأن سفره مع الأنجال مما يزيده شرفاً ورفعة »

سافرت البعثة إلى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها سنتين بباريس ، ولأجلهم أنشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية ، وإعدادهم لدخول المدارس العليا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم فى دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان إلى عهد انتظامه فى البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه فى ذلك كشأن العلامة رفاعة رافع الطهطاوى حينما انتظم فى البعثة الأولى ؛ واقتضى نظام التعليم فى البعثة أن يجعل من المتقدمين فى الرياضات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لافرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ؛ ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم لينفردوا بالتقدم .

(١) ذكرنا أسماءهم ، وترجمنا لنوابغهم فى الجزء الثالث من (تاريخ الحركة القومية) ص ٤٦٥ وما بعدها .

فمكث المترجم مدة لايفهم الدروس التى يسمعها ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه الصعوبة بالصبر والمثابرة وقوة العزيمة ، ذلك أنه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتفهمها وحفظها ، وبذل فى هذا السبيل جهداً لاينقطع ثلاثة أشهر متوالية مع متابعة الدروس التى تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة ، وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه :على (باشا) ابرهيم ، وحماد (باشا) عبد العاطى .

ولما جاء ابرهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة إلى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع بنفسه الجوائز على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب فى الجغرافية لمؤلفه المسيو (مالطبرون) مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة إلى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً وحثاً لهم على متابعة الدرس والتحصيل .

يتجلى لك فى هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس مبلغ قوة إرادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ؛ وثمة ظاهرة أخرى تزين هذه الصفحة ، وهى بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة راتباً شهرياً قيمته مائتان وخمسون قرشاً ، فجعل نصفها لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس .

وهذا البر بالأبوين يدلك على ما تجملت به نفس على مبارك من الوفاء ومكارم الأخلاق ، وإنكار الذات ؛ ولا شك أن هذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعاً وبهاء .

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس ألحق الثلاثة الأوائل من أعضائها وهم : على مبارك ، وحماد عبد العاطى ، وعلى إبرهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية .

وبعد أن أدوا الامتحان النهائى ألحقوا بالجيش الفرنسى ، فكان على مبارك فى الألاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ؛ وبديهى أنه اكتسب بانتظامه فى هذه الفرقة خبرة حربية كبيرة ، فى الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التى نالها فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ومدرسة باريس ومدرسة متز الحربية ، فلا غرو أن صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه فى إدارته لمصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الأشغال المصرية فى عصر اسماعيل .

وكان ابرهيم باشا يرغب فى أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلماً ، وأن يطيلوا مكثهم فى الخدمة العسكرية بفرنسا حتى يستوفوا تجاريبها ، ثم يتنقلون فى الديار الأوربية الأخرى ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا مافيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن وفاته حالت دون إنفاذ

هذا البرنامج ؛ فلما خلفه عباس الأول طلب إلى نوابغ البعثة العودة فوراً إلى مصر ، فرجعوا إليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والانتاج.

عمل المترجم فى عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلا على العمل بكل مافيه من نشاط وهمة ؛ ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته فى النهوض بأعمال التقدم والعمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته إلى مصر ؛ لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضى نحو أربعة عشر عاماً ، والبلاد تكاد تحرم أعماله المنتجة ، وخاصة فى عهد سعيد الذى لم يكن يقدره حق قدره .

ولم يبدأ عهد إنتاجه الكبير إلا فى عصر اسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة إلى إحياء النهضة العلمية فى البلاد .

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر ، أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ؛ ولكن التعليم فى عهد عباس باشا الأول كان مصاباً بالجمود والاهمال ، فتناقص عدد التلاميذ فى هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسة (المفروزة) التى اختار لها الطلبة من جميع المدارس بعد إلغاء معظمها ، ولم يبق بمدرسة طره إلا عدد قليل من الطلبة المتقدمين فى السن ، وأمعنت المدرسة فى التأخر حتى لم يبق فى الفرقة التى يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد.

صار المترجم إذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل إليه نفسه ، لأنه اعتاد الكد والدأب على العمل ؛ ولقد حدثته نفسه أن يتخلف عن المدرسة فى أجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنه ، فرغب إليه ناظر المدرسة فى البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه إذا هو غاب عنها .

وسعى له الناظر عند سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ليصطحبه فى مهمة حربية ، هى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ما أراد ، وصحب المترجم سليمان باشا إلى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسماً مفصلا لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ، ثم ذهب إلى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا إليها منذ مدة واستقروا بها.

زيارته لأهله

فدخل البلدة على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره إلى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائباً بمصر ؛ ولم يكن بالمنزل سوى والدته وبعض إخوته ؛ وكان قد فارق أمه منذ أربع عشرة سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره فى تلك الليلة ، فلما طرق الباب قيل : من أنت ؟ فقال : ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة وقصدت إلى ماوراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر

لتتحقق الخبر ، وكان بردائه العسكرى متقلداً سيفه وحاملا شوار الضباط، فلم تصدق أنه ابنها حتى أعادت سؤاله، وتحققت أنه هو، ففتحت الباب ، وما ان رأته حتى ارتمت عليه تعانقه، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر، ثم أفاقت، وجعلت تبكى، وتضحك، وتزغرد ، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران يهرعون، وامتلأت بهم الدار، وانقضى الليل حتى الصباح، والناس بين رائح وغاد، يجيئون لتهنئته؛ وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز، وبلوغه هذه المرتبة العالية.

وبعد يومين قضاهما بين أهله وعشيرته عاد إلى دمياط، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى ، نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان، وأثنى عليه الثناء المستطاب .

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى، سعى له فى منصب آخر بدلا من التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات ، وكان مقره الاسكندرية .

فذهب إليها المترجم ليستلم منصبه الجديد ؛ ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو ، وحماد بك، وعلى بك ابرهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم على كل منهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ؛ وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، فأحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً لهذا المشروع .

ولما عاد إلى القاهرة عهد إليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك كبير مهندسى القناطر الخيرية ، وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة، وأحيلت عليه وعلى زميليه على ابرهيم وحماد عبد العاطى كل الأعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة .

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس بعد أن ألغى معظمها ؛ ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠٠٠٠ كيس (١٠٠٠٠٠ جنيه)، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد، وبادارة ناظر واحد؛ واستبعد الرصدخانة من المشروع لعدم وجود من يقوم عليها حق القيام ولكثرة نفقاتها .

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز إعجابه، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين، فبحثوه وأقروه، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة أمير الاى، وعهد إليه بتنفيذه، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية، وكلفه اختيار مدرسي مدرسة المفروزه، ووضع نظام للتعليم فيها، واختيار مايلزم لها من الكتب، فاضطلع بهذه المهمة، وعظمت منزلته عند عباس باشا.

وبذل جهداً عظيما فى ترقية شأن المدارس التى تولى إدارتها، فكان يرشد المعلمين إلى خير الطرق للتدريس، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها، ويباشر تأليف الكتب المدرسية بنفسه، يعاونه بعض المعلمين، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية وآلايات الجيش نحو ستين ألف نسخة من كتب متنوعة، غير ما طبع فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة من الكتب ذات الأطالس والرسوم، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس كالطبيعة والعمارة، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ويسهر على حسن معاملتهم، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس.

عمله فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ مما كتبه المترجم عن نفسه أنه لم يكن مرضيا عنه من سعيد باشا، فقد ذكر أنه لما تولى الحكم وشى له بعض الكاشحين بمدرسة المهندسخانة، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة، واختلقوا عليها معايب كثيرة، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم، فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سنة ١٨٥٤ صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها احمد باشا المنكلى.

وليس من ضير على الحكومة اذا عهدت الى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم، فقد نال حظا كبيرا من التعليم الحربى، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية، ولكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم تكن الاستفادة من خبرة المترجم الحربية، إذا لم يعهد إليه فى حرب القرم بعمل حربى ذى شأن، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بالغاء مدرسة المهندسخانة، فالغرض الحقيقى كان إذن إبعاد المترجم وإقفال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه ترقيته وإنهاضه، فالعمل كما ترى ضرره اكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره؛ لكن أهواء سعيد باشا (وقد كان دائما كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدساسين، ويوصد أبواب تلك المدرسة، ثم يحرم البلاد خدمات على بك مبارك العلمية، ذلك أن على مبارك، وإن كانت

دراسته العليا عسكرية، لكن نفسه اتجهت إلى ناحية أخرى غير الحياة الحربية، هى ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض بأعبائه .

فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ؛ ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة إلا فى عصر اسماعيل .

ويستفاد مما ذكره المترجم، أنه شعر بأن تكليفه مهمة السفر إلى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله: «أقمت بهذه السفرة قريبا من سنتين ونصفاً ، وقد لطف الله بى وأحسن إلى، ورد كيد الحاسدين فى نحورهم، فانى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار، وما يلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ؛ لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » فيؤخذ من ذلك أن ثمة حاسدين كانوا يكيدون له؛ ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر إبعاده إلى بلاد القرم وإرساله إلى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والاخطار ، ولكن الله لطف به إذ رد كيدهم، وعاد من الحرب سالماً، ونال منها مزايا جمة.

والواقع أنه أفاد كثيراً من هذه الحملة؛ فان الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والاقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام المخاطر والبقاء فى خط النار لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأنا من خطة اللين والمسالمة التى اختطها لنفسه ؛ ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع فى أن مداركه قد اتسعت، وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب .

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد إليه أمر المفاوضات والمخابرات بين الروس والترك، وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الاناضول أغلبها فى مدينة (كومشخانه)، وكان منوطا به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود إلى مدينة أرضروم بأرمينيا؛ وعلى كون هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية، فقد لاقى فيها الشدائد والاهوال، لشدة البرد ، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ، ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز مافيها من العقبات بين جبال شاهقة وأودية سحيقة.

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكومشخانه، نظمه تنظيما حسناً، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجند .

عودته الى مصر والوظائف التى تولاها

ولما عاد المترجم إلى مصر اعترضته فى الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد باشا أمر باخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم إلى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك.

فسكن فى بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا كحالته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمل فيه من المناصب والوظائف، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافا ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع الى بلده ، والاشتغال بالزراعة ، وقال لنفسه، «عوضنا الله خيرا فى نتائج الفكر، وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا مافارقنا البلد ولا خرجنا منها » .

وبينما كان يتأهب للرجوع الى بلده صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور الى القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول .

وبعد قليل عين معاونا بوزارة الحربية ، وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولكنه راض نفسه على الصبر، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ؛ وحدث أثناء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية (اسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار فى إتمامه ، واستدعى على بك مبارك ، لما كان يعهد فيه من الكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا .

وقد وفى اسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد باشا بالحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا، ثم عهدت اليه وكالة المحكمة التجارية، فاضطلع بأعبائها، بأمانة ونزاهة ؛ولكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا فرفت منها ، فعاد كما بدا ، عاطلا من المنصب ؛ واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشا لهندسة نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات أبى حماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع أبى حماد (جنوبى رشيد) بين فرع رشيد وبحيرة أدكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير ما يرام ؛ ولكنه عند ما أراد أن يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه اليه ، وتردد عليه آنا فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم تتيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد الى بلد مدة ثلاثة أشهر، بلا راتب ، ولا عمل ، دون أن يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، الى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه اليه ، فنظر فيه قليلا ولم يزد عن قوله له :

«أبقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه» ، وكانت هذه الاجابة نتيجة الانتظار ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك؛ ولكنه أمر أن يربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته زمنا بلا عمل ، الى أن أصدر أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وصف الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة لكى يشغل نفسه بعمل ما، مهما كان ضئيلا، لأن نفسه تعاف الكسل والبطالة، فصار يدرس حروف الهجاء، والخط، والمبادىء الأولية فى الرياضيات، والقواعد الحسابية، وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية، سماه (تقريب الهندسة).

وكان يشغل أوقات فراغه بالمطالعة وتدوين بعض الملاحظات على مايقرأه؛ جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) يحتوى على فنون شتى يحتاج إليها المشتغلون بالهندسة.

ولما اعتزم سعيد باشا السفر لأوربا أمر برفت معظم من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين.

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التى اعتبرت «زائدة عن الحاجة» ، فدهش المترجم إذ رأى هذه النفائس تباع بالمزاد بأبخس الاثمان ، وفى جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ؛ ودخل فى المزاد ، واشترى من هذه الاشياء ما أمكنه ابتياعه.

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فتاجر فيما اشتراه وعامل التجار وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الانفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتاجر مدة شهرين، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والاعراض عن مناصب الحكومة ؛ لما رآه من اضطراب الاحوال وتقلبات الامور مما كاد يفقده ثمرات العلوم ؛ وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه نقد ما جمعه من الكد والتعب، فآثر الاحتراف بالتجارة، وجال بخاطره أن يعقد وبعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة ، يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة ، فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه، ففكر فى القيام به بنفسه، وبينما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به؛ طرق سعيد باشا طارق المنون سنة ١٨٦٣ ، فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم، ذلك أن اسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك؟

(يتبع) عبد الرحمن الرافعى

الـبر بعد أوانه

الزهرة والسحاب

وهى إحدى درر الشاعر العصرى الكبير

الاستاذ محمد الهراوى

مرت بواد مزنة ... فى يوم قيظ محرق
فاستوقفتها زهرة ... ترنو بعين الحدق
قالت لها : هل قطرة ... من مائك العذب النقى
أروى بها عودى وأنـ ... ـجو من هلاك محدق
وأعيد بعض نضارة ... ولت وأحفظ ما بقى
فالحر طاح ببهجتى ... ومضى بغصنى المورق
فاذا منحت بها علـ ... ـى ذكوت بين الزنبق
واخضر عود يابس ... ونما بزهر مونق
يامن تسير على جنا ... ح الريح نحو المشرق
روحى لديك فهاتها ... لى من نداك المغدق

***

فرنت لها أم الحيا ... بالناظر المترقرق
قالت لها : لبتك تلبيـ ... ـة الكريم المشفق
إنى سأرجع فاصبرى ... حتى أعود فنلتقى
راحت وعادت للتى ... ماتت ولم تك تستقى
صبت عليها من ندا ... ها الهاطل المتدفق
هيهات لايحيى الندا ... أهل القبور ولا يقى

***

البر خير ما عجلـ ... ـت به لعان مرهق
فاذا ونيت فانت فى ال ... إحسان غير موفق

محمد الهراوى